

التبويب النحوي: منهج للتأصيل والتحصيل.

Grammatical tabulation: a method of rooting and acquisition.

حكيم فلاك¹

imad91hakim@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/03/27 تاريخ النشر: 2026/06/11

Received: 27/03/2026 published: 11/06/2026

ملخص المقال:

يعتبر التبويب النحوي ركيزة أساسية في التأليف اللساني العربي، حيث انتقل النحو من مرحلة الرواية والسماع إلى مرحلة التصنيف والتفصيل المنظم. وعملية اختيار الباب النحوي وتنسيقه وصياغته ليس مجرد ترف فكري، بل هو ضرورة علمية منهجية ترمي إلى ضبط المتناثر من المسائل تحت أطر جامعة بناء على الإئتلاف والاختلاف لغرض استخراج الحكم المعياري. ومن وجهة تعليمية تربوية يستهدف تبويب المسائل النحوية إبراز التنظيم المنطقي فيها وبينها مما ينعكس إيجاباً على عملية تعليمه واستيعابه، مما يساهم في تكوين ملكة لغوية قادرة على تجنب اللحن في صوغ التراكيب اللغوية، وقادرة على انتحاء سمت كلام العرب في كلامها.

كلمات مفتاحية: الباب النحوي، التبويب، الحكم المعياري، المنهجية، التعليم، المصطلح النحوي، الملكة اللغوية.

Abstract:

Grammatical categorization represents a fundamental pillar in Arabic linguistic tradition, marking the transition from oral transmission to systematic classification and codification. The process of selecting and structuring grammatical chapters is not merely a formal exercise; rather, it is a methodological necessity aimed at consolidating disparate linguistic issues into unified frameworks based on patterns of affinity and divergence to derive normative rules. From a pedagogical perspective, this organization highlights the logical coherence within the language, facilitating its acquisition.

Keywords: Grammatical chapter; classification; standard ruling; methodology; education; grammatical term ; linguistic ability .

مقدمة:

عرفت حركة التأليف النحوي تطورا مشهودا في جميع مظاهرها وتحليلاتها، بعد أن اتّسمت الجهود الأولى بالبساطة والمباشرة لكونها أقرب إلى الرسائل والمتون التعليمية منها إلى مؤلفات علمية. لذا غابت فيها سمات التأليف العلمي وخصائص المنهجية العلمية الدقيقة. وامتزجت فيها قضايا النحو بعلوم العربية الأخرى، إذ كان هم العلماء حينها منصبا على توثيق اللغة وصونها من الانحراف والاندثار. وبقيت الحال على تلك الصفة إلى أن ظهر أول مؤلف علمي سعى إلى استكناه القوانين والقواعد العامة التي تحكم الاستعمال السليم للغة العربية، مبنيا على منهجية علمية دقيقة في التصنيف والترتيب والتبويب، ونقصد به كتاب سيبويه. ثم ظهرت من بعده مصنفات متنوعة سارت على نهجه العلمي في الاستنباط والتقعيد، مع اختلاف في طرق العرض وأساليب الترتيب والتبويب، حسب ما تقتضيه الظروف وأحوال المتعلمين وقدراتهم. فتباينت المؤلفات بين المختصرات والمطولات، وتعدّدت أشكال التبويب بين البسيط والمعقد. ولقد كانت لتلك الأنماط المختلفة آثارها الحمودة والمذمومة كذلك على الصورة العامة للدرس النحوي. لأجل هذا جاءت هذه الورقة البحثية لتسلط الضوء على بعض جوانب هذه القضية ولو بشكل مختصر، من خلال الإجابة على بعض التساؤلات المتعلقة بمفهوم التبويب النحوي وأهم مسائله، كما تسعى إلى إبراز أهم خصائصه وميزاته كونه إحدى سمات المنهج العلمي، والوقوف على بعض آثاره على الدرس النحوي في شقه العلمي و شقه التعليمي.

مفهوم التبويب النحوي

1.2 لغة:

بالنظر إلى التعريفات اللغوية التي أعطيت لهذا المصطلح فإننا نجد أقربها إلى المفهوم الذي نحن بصدد ما ذكره الكفوي في قوله (حسني، 1998، صفحة 249): "الباب في الأصل مدخل ثم سمي به ما يتوصل بها إلى الشيء، وفي العرف طائفة من الألفاظ الدالة على مسائل من جنس واحد".

فجميع التعريفات اللغوية تجتمع مع هذا التعريف في جعل الباب اسما لكل ما يوصل إلى الشيء باعتباره مدخلا له وإليه، لكن هذا التعريف سقناه لأنه يحمل زيادة على ذلك، وهي إشارته إلى المعنى العرفي؛ أي ما صار أكثر التصاقا بهذا الاسم من معنى متعارف بين العرب في استخدامهم إيّاه، فقد اكتسب معنى تجريديا دالا على طائفة من المسائل المعقولة التي تحمل خصوصيات مشتركة تجعلها قابلة لتشكيل مجموعة متحدة تحت اسم واحد. ولا شك أنّ العلاقة بين المعنى الأصلي اللغوي العام والمعنى العرفي الخاص ظاهرة، ذلك ما بينه حسن خميس الملخ في تعريفه الاصطلاحي لباب النحوي.

2.2 اصطلاحا:

يقول حسن الملخ (الخميس، رؤى لسانية في نظرية النحو العربي، 2007، صفحة 228): "لا يبعد أن يكون النحاة قد استعاروا مصطلح الباب من باب المنزل، لأنه يدخل إلى المنزل، - ثم يذكر تعريف الكفوي السابق - ويواصل قائلا: فإذا قلنا باب الفاعل فكأننا قلنا الباب الذي يدخل إلى قضايا الفاعل ومسائله، وقضايا الفاعل ومسائله على تنوعها ينظمها خيط منهجي واحد، يحدد مفهوم الفاعل أو القاعدة الكلية لباب الفاعل".

وهو هنا يشير إلى معنى زائد للباب فهو ليس مجرد مدخل إلى مسائل علمية، بل ينبغي أن يحقق شرطا آخر وهو أن يكون جامعا أيضا لتلك المسائل، فبقدر ما يكون بينها من فروق تعددها ينبغي أن توجد بينها صفات كثيرة مشتركة توحدتها وتحددها تحت باب واحد، وذلك ما قصده بقوله: (ينظمها خيط منهجي واحد). ولعل هذا التصور هو ما جعل مصطلح الباب يتخذ معنى رياضيا، من حيث دلالاته على الاشتراك والاجتماع، يقول حسن الملخ (الخميس، رؤى لسانية في نظرية النحو العربي، 2007، صفحة 40): " والباب النحوي مصطلح رياضي يعني وجود علاقة مشتركة بين عدة عناصر تصبح فيها العلاقة جامعة".

وهو ما أشار إليه أيضا عبد الرحمان حاج صالح في تعريفه، ومعلوم عنه ميوله إلى المنهج الرياضي التحليلي في تناوله للمسائل اللغوية، لكنّه فصل أوجه تلك العلاقة الجامعة، فقد أعطاها ثلاث تمثيلات؛ فإما أن يكون ذلك الاشتراك على أساس الوظيفة (المعنى النحوي الخاص كالفاعلية)، وإما أن يكون على أساس الجنس؛ كباب النواسخ، وإما أن يكون الاشتراك بالنظر إلى شكل التركيب؛ كالجمل الاسمية أو الجمل الفعلية و شبه الجملة، أو الجمل التي لها محل إعرابي والتي ليس لها محل إعرابي وهكذا، وهذا نص كلامه يظهر لك فيه ما ذكرناه بتأمل يسير يقول: "ويجب أن نلاحظ أنّ المجموعة المسماة بالباب وإن كانت شبيهة بالصنف أو الجنس، فهي في الحقيقة المجموعة بالمعنى الرياضي، والدليل على ذلك هو وجود الباب وحصوله كنتيجة للقسمّة التركيبية، وذلك مثل جميع التراكيب التي يمكن أن تحصل للثلاثي المجرد، وهي إثنا عشر تركيباً منها: فَعَلَ وفَعِّلَ، فأما: فَعِلَ، فهو باب لا يحتوي إلّا على كلمة واحدة في المشهور وهي إِبِل...فهذه مجموعة وحيدة العنصر، وأما: فُعِّلَ، فلا تحتوي على شيء أبداً فهو مجموعة خالية أو فارغة باصطلاح الرياضيات الحالية، ويسمى سيبويه أيضا بابا كل تركيب من الكلام كالمبتدأ أو الخبر أو الفعل أو الفاعل وما يتفرع عليها بدخول الزوائد والنواسخ عليها، ويسمى أيضا كل اللغويين العرب بابا المادة الأصلية للكلم، قال ابن فارس (حاج الصالح، 2009): "تأملت هذا الباب (الدال على اللام) من أوله إلى آخره".

ويذهب محمد إبراهيم عبادة إلى أن هذا المفهوم للباب النحوي كدلالاته على الاشتراك على أساس الوظيفة لم يعرف إلا عند المتأخرين، أمّا عند متقدمي النحاة بداية من سيبويه، فلم يكن الباب عندهم دالا (إبراهيم، 1987، صفحة 24) "على الوظيفة النحوية؛ كباب الفاعل و باب المفعول به و باب التوكيد و باب التمييز كصنيع المتأخرين من النحويين في مصنفاتهم، ولكنه (يقصد سيبويه) عقد بابا لكل مسألة من مسائل النحو والصرف، من غير تفرقة بين المسائل الرئيسية والمسائل الفرعية، فتجد الباب عنده بابا بعنوان (هذا باب إعراب الأفعال المضارعة للأسماء)".

في تطور التبويب النحوي

إنّ التبويب النحوي بوصفه مظهرا علميا في الدرس النحوي فإنه سيخضع لتطور العلم ذاته الذي ينتمي إليه ، فمن البديهي إذن أن لا نجد في بدايات الاجتهاد النحوي صورة واضحة للتبويب، ولكننا قد نجد بعض الإرهاصات في ظهور بعض الأبواب، من ذلك ظهور المصطلحات الإعرابية الرفع والنصب والجر والتنوين والغنة من خلال نقط المصحف في قصة أبي الأسود الدؤلي مع رجل عبد القيس، وكذلك بابي التعجب والاستفهام وذلك في قصة أبي الأسود مع ابنته، وأقسام الكلم التي وضعها أولا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في صحيفة دفعها إلى أبي الأسود وأمره أن ينحو نحوها، وهذه جميعا تمثل فقرات أساسية في هيكل النظرية النحوية إلى هذا الوقت المتأخر. لكن الصورة التي كانت تعرض من خلالها هذه المسائل وغيرها تدفعنا إلى الحكم بيقين تام بأنّ التبويب بمفهومه العلمي الدقيق لم يكن معروفا قبل سيبويه فالنحو حينها كان عبارة من مسائل متفرقة لا تجمعها قاعدة ولا يعضدها باب جامع. (حسين، 1998)

والإجماع واقع بين الدارسين على أنّ الأسس المنهجية للتبويب، قد لاحت لنا جلية مع كتاب سيوييه، فقد ضم مصنفه هذا تحليلاً وإحساساً دقيقاً بفقهاء اللغة وأساليبها، وأسرار تراكيبها، وهو يعد مثلاً راقياً وأ نموذجاً في علمية المنهج، ودقة العرض والتصنيف. (عوض، 1981) ويقول عبد الكريم جمعة الميعان، نقلاً عن محمد كاظم البكاء في فضل سيوييه في منهجه في تبويب مسائل النحو (كاظم، 1989، صفحة 162): "يمثل الكتاب خلاصة الفكر النحوي للرغيل الأول من النحاة العرب، فهو علم الخليل الذي تلقاه من شيوخه، ونقله إلى تلميذه سيوييه وقد تفرد في ترتيب أبوابه وتنسيق مباحثه على نحو لا نجده في مؤلفات الآخرين.

وقد انبنى النحو عند الرغيل الأول من النحاة على هيكلية فريدة لأبواب النحو فقعدت ونظمت على أقوال العرب التي تعتبر أمثلة استخدام اللغة لدى فصحاءهم، ودأب هؤلاء على تصنيف المواد النحوية على أنواع الإسناد، فهم يراعون تأليف الكلام في العربية مصنفين إياها حسب تراكيبه ودلالاته، ولا يقتصر النحاة على بيان الأحكام النحوية لكلام العرب فحسب بل وأمعنوا النظر في أمثلة كل باب من حيث الخطأ والصواب ومن حيث الجودة والرداءة".

ولا شك أن النحو قد تطور بعد سيوييه، فزيدت عليه مسائل ودخل عليه تنظيم أحسن، وتبويب أقوم، وترتيب أكثر سلاسة وتقعيد أدق، ولكنه مع ذلك لم يخرج عن المنهج الذي رسمه سيوييه في استنباط الأحكام واستخراج المسائل وتوضيح العلل، فالأجيال المتعاقبة لن تغير أسسه وقواعده وإن غيرت صوره وقوالبه إذ وسعت كثيراً من مباحثه.

أنماط التبويب المشهورة في النحو العربي

ونميز أربعة أقسام كبرى:

1.4 التبويب النقلي: وهو أكثر الأنماط انتشاراً وأوسعهم استعمالاً في كتب النحاة، عالج فيه أصحابه النحو في إطار التركيب بوجه عام دون الانتظام في نسق عقلي معين، فهو يبنّي على الخصائص المشتركة الملحوظة في أفراد الباب الواحد عن طريق إعمال الحس. وهذا النمط يعالج المواد النحوية أو التراكيب عن طريق جمعها، وبيان أحكامها مستشهداً بما استعملته العرب في شعرها ونثرها، وقد اختلطت في هذا النمط من التبويب معالجة المواد النحوية بمباحث الصرف والأصوات، ولم تنفصل قضايا النحو بأبواب مفردة. (إبراهيم، 1987)، (المكارم، تعليم النحو العربي عرض وتحليل، 1993).

وأفضل الأمثلة على هذا النمط من التبويب كتاب سيوييه، فقد بدأ سيوييه أولاً بتقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، ثم عرج إلى بيان أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً، ثم أردف ذلك ببيان صور التركيب العربي وأن الجملة العربية تتكون من عنصرين أساسيين هما المسند والمسند إليه، ثم انتقل إلى بين ما يعرض للتركيب من أحوال تعدل به عن صورته الأصلية من حذف واستتار وتقديم وتأخير وغير ذلك وكذلك بين ما يتحملة الشعر من ضرورات والتجاوزات، كما أنه فرع الكلام من حيث الدلالة والاستقامة. ثم تناول أنواع الجملة الفعلية وذكر صورها المتعددة، ثم أنواع الجملة الاسمية وما يطرأ على عناصرها من تغيرات داخل التركيب، وأخيراً تناول الحروف التي تدخل على الجملة الاسمية. (سيوييه و تح البكاء، 2018)

2.4 التبويب العقلي: ويستند هذا النمط إلى المقولات النظرية (كنظرية العامل)، والأقيسة العقلية المجردة، ويحاول إقامة بناء عقلي يتسم بالشمولية والاتساق، ليتسنى للمتعلمين جمع المسائل ويسر عليهم تلقي النحو وفهمه، ونميز هنا نوعين من التبويب:

- **تبويب يراعي المعمولات:** أي أن التبويب والتقسيم الداخلي للمسائل النحوية قائم على الإعراب الذي هو آثار العوامل في المعمولات، فيعرض المؤلف باب المرفوعات وباب المنصوبات فالمجرورات إلى غير ذلك. ومن أمثلة هذا النوع نجد كتاب اللمع لابن جني، وتسهيل المقاصد وتكميل الفوائد لابن مالك، وشرح شذور الذهب لابن هشام الأنصاري.

- **تبويب يراعي العوامل:** يركز هذا النوع من التبويب على عرض العوامل التي ترفع وتنصب وتجر وتجزم، فالأمر يتعلق بمعرفة العوامل التي تحدث التغيرات الطارئة على أواخر الكلم. وأبرز أمثلة هذا النوع نجد مقدمة خلف الأحمر في النحو، والتفاحة في النحو لجعفر النحاس، العوامل المائة للجرجاني. (المكارم، تعليم النحو العربي عرض وتحليل، 1993)، (إبراهيم، 1987).

3.4 نط يراعي أقسام الكلم: ويعمل هذا النمط على تقسم المادة اللغوية بالنظر إلى التقسيم الثلاثي للكلم العربي، فيعرض المؤلف لكل المسائل المتعلقة بالاسم ثم مسائل الفعل ثم يختتم بالمسائل المتعلقة بالحرف، وقد انتهج هذه الطريقة كل من الزمخشري في المفصل و ابن الحاجب في الكافية ومحمد بن عثمان البلخي في كتابه الوافي في النحو.

4.4 تبويب يراعي الدلالة: ونعني بذلك أن يتصور النحوي شبكة العلاقات الرابطة بين العناصر الأساسية المجتمعة تحت باب واحد، والعلاقات بين تلك العناصر وما يتفرع عنها من مسائل إلى آخر جزئية يمكن أن ترتبط بذلك النسيج العلائقي، فإن العناصر الداخلة في إطار الباب الواحد لا يعني بالضرورة اتفاقها في جميع الصفات والخصائص، بل لابد أن توجد بينها فروق ولو طفيفة تمنح لذلك الباب ميزة الثراء والغنى المعرفي كما وكيفا، تركيبا ودلالة. يقول علي النجدي (النجدي، 1979، صفحة 159): " ومعلوم أن لكل باب في كتاب سيبويه، بل لكل مسألة في باب مقتضيات خاصة وطبيعة متميزة قليلا أو كثيرا، إذ لا ينتظر أن يعالج سيبويه أبواب الكتاب ولا مسائل الأبواب علاجا واحدا مطردا... بل يستحضرها ويضع المعالم لها، ويتعرف حاجتها من الأمثلة والنصوص، فيجمعها ويصنفها، ثم يعرضها جملة وآحادا".

أسباب اختلاف التَّبويب النّحوي

ويرجع اختلاف هذه الأنماط إلى أسباب كثيرة، أهمها: الفئة التي تستهدفها المؤلفات النحوية، فإنّ النحوي قبل أن يكون مؤلفا هو معلم بالدرجة الأولى، وعلى المعلم أن يستحضر في ذهنه مواصفات تلامذته الذين يوجه إليهم تعليمه، خاصة وأنّ معظم كتب النحو كانت في الحقيقة كتباً تعليمية بالدرجة الأولى، لذلك نعتبر هذا أقوى العوامل المؤثرة في منهجية التأليف عموماً والتبويب خصوصاً، فإنّ (النجدي، 1979، صفحة 159) "اختلاف النحويين عند تأليفهم، هو تابع لاختلاف مستويات المتعلمين، وإذا أحس أحدهم بصعوبة كتاب أو شكوى المتعلمين منه - طريقة تأليفه أو تبويبه- ومنهجية عرضه للقضايا، بحث عن مدخل آخر يزيل به تلك الصعوبة، ويرفع به هذه الشكوى".

ومن تلك العوامل أيضاً اختلاف اللهجات أو اللغات المستشهد بها، فإذا كان الاختلاف في اللهجات كان له الأثر الإيجابي في إثراء الدرس اللغوي بالمادة اللغوية، فإنّه بالمقابل فتح باباً إلى خلاف واسع بين النحاة في صياغة الأحكام وبناء القواعد وتوحيدها، ويظهر ذلك جلياً بخاصة في اختلاف أوجه الإعراب للشاهد الواحد، وهذا سيؤثر بالتالي على تبويب المسائل، فإن كان المثال الواحد يتخذ وجوهاً إعرابية مختلفة وبالتالي أحكاماً ومعانٍ وظيفية متعددة، فإنّه في النتيجة سيكون صالحاً للدخول في أبواب نحوية متعددة أيضاً. ويدخل في هذا المعنى كذلك اللغة الشعرية المبنية على الضرورات والمجازفات والمخالفات التي تنبذها القواعد المعيارية. (بك، 1988)

ومنها كذلك ما يرجع إلى تباين العصور والبيئات؛ فإنّ الصناعة النحوية مع مرور الزمان تصبح أكثر نضجا، فيزداد إقبال العلماء إلى التصنيف، وكثرة التصنيف والتأليف تفتح بابا نحو اختلاف المناهج والأساليب فتظهر المختصرات والمطولات وتتنوع بين المعقد والميسر، كما يظهر الجنوح إلى التخصص والتخصص يعني بالضرورة الاختلاف والتنوع، واتساع أبواب النحو وكثرة مواضيعه وتشابك قواعده. ومع افتتاح الثقافة الإسلامية على الثقافات الأخرى، واطلاع المسلمين على الفلسفة والمنطق، وظهور علم الكلام، كان لهذه الظروف أثرها في توجيه الاجتهاد النحوي، فبنى النحاة منهج التعليل والتأويل، وانجرفوا خلف ثقافة التمازج وفقه الخلاف، حيث صار الخلاف بذاته مطلبا ومقصدا لهم، حتى أنك ترى النحاة ينتقون الشواهد الخلافية والشاذة بعينها، لا لشيء إلا لإبراز التفرد والأسبقية في القدرة على التأويل والشرح والتعليل، وقد تجد من يفعل ذلك لأجل الرد على المخالفين مذهباً، فتحول النحو إلى ساحة للجدل الفلسفي والتباهي بالأقيسة المنطقية المصطنعة البعيدة كل البعد عن اللغة الطبيعية. بالإضافة إلى الغموض المنهجي، وانتشار مصطلحات غامضة الدلالة، وبروز جدلية التوجه التي الهدف منها أولا وأخيرا مخالفة الآخر دون مراعاة القاعدة النحوية التي يحكم إليها الباب النحوي.

التبويب النحوي ضرورة علمية وتعليمية معا

إنّ النحو العربي لم يرق لأن يكون علما أو صناعة على تعبير القدماء إلاّ لأنّه استكمل بامتياز سمات العلم الدقيق والصناعة المضبوطة، ولقد وضح ذلك بالتفصيل وأقام عليه البرهان والدليل الدكتور تمام حسان في كتابه الأصول، حيث عقد مقدمة في ذكر الفرق بين الصناعات والمعارف. ومن جملة تلك الصفات التي ذكرها صفة التماسك؛ وهو الترابط العضوي بين أجزاء الموضوع الواحد، ولا يتحقق هذا إلاّ بأمرين: أحدهما عدم التناقض في مسائل الباب النحوي الواحد. فالنحو لم يكن بناءا متماسكا متكاملا حتى غدى صناعة إلاّ لانتفاء التناقض عنه. والثاني هو التصنيف الذي يبدو في تقسيم النحاة درس النحو إلى أبوابه المعروفة، والتصنيف مساوق للتجريد فاللغويون العرب جردوا من كل مجموعة لغوية صنفا يعبر عنها تربط بين مفرداته علاقة التوافق حتى لا تتناقض فيما بينها، ثم بين كل صنف وآخر توجد علاقة خلافية (تمايز) حتى لا يلتبس صنف بآخر. (حسان، 2000).

فالتبويب طريقة مثلى لجمع شتات المادة اللغوية، وتصنيفها في مسائل جامعة، وذلك يسهل مهمة تناولها والتعامل معها سواء من طرف الباحث أو المتعلم، من خلال بساطة عرضها ومنطقية تسلسلها ووضوح نتائجها ومروايتها. كما أنّه ينفي عنها التنافر والتشتت وبالتالي تقليل الوقت والجهد المبذول من قبل الباحث والمتعلم، حيث يصبح النحو مجموعة متجانسة من القواعد تنحو بالمتعلم نحو الصواب في أدائه اللغوي. لذلك كان التبويب المنهج لقضايا النحو ومسائله خط الدفاع الأقوى عن النحو على امتداد قرون طويلة.

وفي المقابل فإنّ (المكارم، تعليم النحو العربي عرض وتحليل، 1993، صفحة 99) "التبويب المضطرب الذي لا يراعي خصوصيات المنهج العلمي كفيل بإعاقة عملية التعلم، وقد أجمع النحاة على أنّ نشأة النحو العربي كانت تعليمية بامتياز، وبدل أن ينمي الكفاءات النحوية للمتعلم، فإنّه يهوي بها نحو الغموض والالتباس، ومن ثمّ الإعراض عن الإلمام بها، فلاضطراب المنهجي في التأليف النحوي أعظم خطرا وأعمق أثرا، لأنّه يمتد إلى أسس التفكير وطرائقه وضوابطه، وما يترتب عليه فيما بعد من استنباط للقاعدة النحوية، ومن ثمّ القدرة على تحليلها وصياغة ما يترتب عليها".

وإنّ الظاهرة اللغوية متباينة المستويات، لا يمكن حصرها وتصنيفها في وجه واحد ومستوى واحد، لذلك ينبغي الاهتمام بطريقة عرضها من حيث تنظيمها في أبواب وتدرجها، (الراجحي، 1995، صفحة 74) "والذي لا شك فيه أنّ تعليم اللغة من أكثر المواد التعليمية تتابعا، بمعنى أنّ ما سوف نتعلمه غدا يتوقف على ما نتعلمه اليوم، خاصة في المراحل الأولى.

ويدور نقاش واسع حول نمطين من التدريج في تعليم اللغة، هما التدريج الطولي والتدريج الدوري.

(أ) - التدريج الطولي: ومنهجه ينهض على تقديم كل مفردة من مفردات المحتوى دفعة واحدة، بحيث يقدمها تقديمًا مفصلاً، لا يترك منها جزئية إلا أتى عليها. والهدف من ذلك أن يتقن المتعلم كل مفردة قبل أن ينتقل إلى غيرها.

(ب) - التدريج الدوري: وهو على نقيض التدريج الطولي؛ إذ ينهض على مبدأ مستقى من النظرية اللغوية التي تقرر أنّ اللغة نظام من الأنظمة أو هي شبكة من العلاقات، وأنت لا تستطيع أن تعرف شيئاً من اللغة إلا بعد أن تعرف العلاقات التي تربطه بالأشياء الأخرى.

وانتهى النقاش في الأخير إلى تفضيل النوع الثاني لأنه الأفضل والأقرب إلى طبيعة الظاهرة اللغوية، والأنسب كذلك لطرق التدريس الحديثة والفروق الفردية لدى المتعلمين. إنّ هذا التسلسل في هيكلية أبواب النحو، والتماسك في عرض الدروس والموضوعات النحوية المتتالية، ساهم في تدعيم وتثبيت المكتسبات القبلية للمتعلّم، وهو ما حدا بنحائنا الأوائل إلى تقديم أبواب النحو والصرف العامة، بالنظر إلى ضرورة مراعاة التدرج في اكتساب الملكة، والبدء بالأهم فالمهم لصقل هذه الملكة، من ذلك تقديم الأصول على الفروع، (الرحمن، 2008، صفحة 226) "لأنّ الأصول تمتاز عن فروعها ببساطتها لفظاً ومعنى إذ إنّ الفرع هو الأصل مع زيادة إيجابية أو سلبية".

ولأهمية التبويب في التأليف العلمي بعامة واللغوي بخاصة وضعت له شروط صارمة، تكفل له الدقة والموضوعية؛ أهمها:

- الكثرة والاطراد في الأمثلة حتى يصح بناء باب عليها، فالمثال الواحد لا تبنى عليه قاعدة كلية، فلا يصح بالتالي أن نسميه باباً.
- الجمع والمنع؛ بأن لا يخرج من الباب ما هو منه ولا يدخل فيه ما ليس منه، حتى يستحيل حمل مسائل الباب كلها أو جلها على باب آخر مستقل.
- أن يكون موصلاً إلى قاعدة نحوية كلية تندرج تحتها مسائل مختلفة تتعلق بالحكم النحوي. (الخميس، التفكير العلمي في النحو العربي، 2002)

ولقد جمعها عبد الرحمن حاج صالح في قوله (الرحمن، 2008، صفحة 226): "الباب مجموعة من العناصر، تنتمي إلى فئة أو صنف، وتجمعها بنية واحدة".

التبويب النحوي ومسألة تيسير النحو العربي

إنّ مسألة تيسير النحو العربي للمتعلمين العرب أو غير العرب من أهم المسائل التي تشغل اللغويين العرب منذ زمن، ولقد احتدم النقاش حول هذا الموضوع واختلفت الآراء فيه دون بلوغ رأي صائب واضح يُتفق عليه فتصب الجهود كلها متحدة في سبيل تحقيقه. فمنهم من يرى التيسير تخفيفاً على المتعلمين، وعند آخرين هو اختصار وإيجاز وهو عند فريق آخر البعد عن التعقيدات الفلسفية، بينما يذهب فريق إلى أن التيسير يكمن في طريقة تبويب المسائل وعرضها على المتعلمين. (المكارم، أصول التفكير النحوي، 2007)

يقول الأستاذ علي أبو المكارم في هذا الصدد: (المكارم، أصول التفكير النحوي، 2007، صفحة 8) "إن محاولة تبسيط قواعد النحو العربي لا تتأتى إلا بواسطة حذف بعض تقسيماته وأبوابه، أو إدماج بعضها في بعض أو تغيير مصطلحاته بابتكار مصطلحات جديدة لبعض أبوابه ومساائله، أو إعادة استخدام المأثور من هذه المصطلحات على نحو يغيّر ما هو ثابت في التراث النحوي، أو غير ذلك من صور التبسيط وأشكاله".

وهو هنا يثير مسألة العامل الزمني التي ينبغي على الدارسين أن يتنبهوا لها وهم يعيدون صياغة المادة العلمية، فإن التبويب وكيفية عرض المسائل النحوية ينبغي أن يتماشى مع متطلبات الوقت الراهن، وهي إحدى مهمات التخطيط اللغوي أو التهيئة اللغوية، ومع ذلك ينبغي الحذر من الوقوع في فخ المبالغة في مراعاة معطيات الواقع حتى نصل إلى درجة ابتذال العلم، فإن للعلم قدرا من التبسيط لا ينبغي أن ينزل دونه وإلا ابتذل.

ومن الضروري أن نفرق بين علم النحو وتعليم النحو ونحن نناقش هذا الموضوع، فالمقصود بالتيسير هو المحتوى التعليمي لا العلم بحد ذاته. والتيسير أو التبسيط يتعلق بمنهج العرض والتقديم، وكما يقول بلقاسم دفة (بلقاسم، 66): "ليس اختصارا للمعلومات ولا هو حذف للشروح، ولكنه عرض وتحليل جديد لموضوعات النحو، يمكن بواسطة تحويل المادة اللغوية التي تتضمنها مختصرات النحو إلى مادة لغوية تفيد المتعلم في حياته العملية".

كما ينبغي مراعاة التسلسل والترابط المنطقيين بين الأبواب على نحو ما أشرنا إليه في مسألة التدريج في تعليم القواعد النحوية، حتى تتوارد الأفكار منسجمة متسقة لا حشو فيها ولا غموض ولا تعقيد. وذلك بتفادي كثرة التفرع التي تشوش على المتعلم، وجعل رؤوس المسائل أبوابا مع التركيز على الأصول خاصة بالنسبة للمبتدئين أما الفروع فلمن أراد الاستزادة والتوسع والاجتهاد. يقول الجاحظ (ضيف، صفحة 13): "أما النحو فلا تشغل قلب الصبي منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام، في كتاب إن كتبه وشعر إن أنشدته، وشيء إن وصفته". ولقد تنبه النحاة الأوائل إلى هذه الطريقة أعني التأصيل العلمي ثم التوسع والاجتهاد من خلال تبني طريقة التعليم بالمتون ثم التدرج في قراءة شروح تلك المتون من المختصرات إلى المطولات. (إبراهيم، 1987، صفحة 29) "ويعتقد أنه من قبيل التيسير على الناشئة والمتعلمين لم يشأ ابن جني (ت392هـ) في كتابه (اللمع) أن يعرض لباب التنازع والاشتغال، ولا للمنصوب على الاختصاص، ولا للمنصوبات على التحذير والإغراء، ولا لأسماء الأفعال، ولا لموانع حذف المبتدأ وجوبا وحذف الخبر وجوبا، ولا حذف عامل المفعول المطلق، كما لم يشأ أن يعرض لبناء المشتقات وعملها، أما عمل المصدر فقد عرج عليه في باب الحروف الموصولة". وكذلك فعل ابن فضال الجاشي (ت479هـ) في كتابه المقدمة في النحو. (إبراهيم، 1987)

كما يمكن جمع بعض المسائل النحوية المتشابهة تحت باب واحد كباب المرفوعات فتدخل فيه الفاعل ونائبه والمبتدأ والخبر واسم كان وخبر إن. والتركيز على القيم الخلافية بين أفراد الباب الواحد وفيما بين الأبواب لأن الأنظمة اللغوية قائمة بالأساس على تلك القيم وهي المبدأ الرئيسي الذي يتحقق به كل نظام لغوي على نحو ما أوضح تمام حسان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها).

خاتمة:

تنوعت مفاهيم الباب النحوي بين المفهوم ذي المدلول الرياضي والاستقرائي والتحليلي، إلا أن الإجماع واقع على أن الباب ما اجتمعت فيه شروط حتى يتحقق وهي:

- الكثرة والاطراد في الأمثلة حتى يصح بناء باب عليها، فالمثال الواحد لا تبني عليه قاعدة كلية، فلا يصح بالتالي أن نسميه بابا.
- الجمع والمنع؛ بأن لا يخرج من الباب ما هو منه ولا يدخل فيه ما ليس منه، حتى يستحيل حمل مسائل الباب كلها أو جلها على باب آخر مستقل.

- أن يكون موصلا إلى قاعدة نحوية كلية تندرج تحتها مسائل مختلفة تتعلق بالحكم النحوي.

والتبويب النحوي بوصفه مظهرا علميا لم يكن معروفا قبل سيبويه فالنحو حينها كان عبارة عن مسائل متفرقة لا تجمعها قاعدة ولا يعصدها باب جامع، ولكننا قد نجد بعض الإرهاصات في ظهور بعض الأبواب، من ذلك ظهور المصطلحات الإعرابية الرفع والنصب والجر والتنوين والغنة وكذلك بابي التعجب والاستفهام ، وأقسام الكلم الكبرى.

ولقد تميز سيبويه من حيث إنه كان السباق إلى منهجه المتفرد في ترتيب أبواب النحو وتنسيق مباحثه على نحو لا نجد في مؤلفات الآخرين. ثم إن النحو قد تطور بعد سيبويه، فزيدت عليه مسائل ودخل عليه تنظيم أحسن، وتبويب أقوم، وترتيب أكثر سلاسة وتقعيد أدق، ولكنه مع ذلك لم يخرج عن المنهج الذي رسمه سيبويه في استنباط الأحكام واستخراج المسائل وتوضيح العلل، فالأجيال المتعاقبة لن تغير أسسه وقواعده وإن غيرت صوره وقوالبه إذ وسعت كثيرا من مباحثه.

فظهرت أنماط متعددة من التبويب؛ منها النمط النقلي؛ عالج فيه أصحابه النحو في إطار التركيب بوجه عام دون الانتظام في نسق عقلي معين، فهو يبنّي على الخصائص المشتركة الملحوظة في أفراد الباب الواحد عن طريق إعمال الحس. والنمط العقلي: ويستند هذا النمط إلى المقولات النظرية (كـنظرية العامل)، والأنيسة العقلية المجردة، وينقسم بدوره إلى نوعين: نوع يراعي المعمولات، ونوع يراعي العوامل. ونجد أيضا النمط الذي يراعي أقسام الكلم الكبرى، النمط الذي يراعي الدلالة القائم على تصور شبكة العلاقات الرابطة بين العناصر الأساسية المجتمعة تحت باب واحد، والعلاقات بين تلك العناصر وما يتفرع عنها من مسائل إلى آخر جزئية يمكن أن ترتبط بذلك النسيج العلائقي.

ويرجع اختلاف هذه الأنماط إلى أسباب كثيرة، أهمها الفئة التي تستهدفها المؤلفات النحوية ، واختلاف اللهجات أو اللغات المستشهد بها، و إلى تباين العصور والبيئات خاصة بعد انفتاح الثقافة الإسلامية على الثقافات الأخرى، وإطلاع المسلمين على الفلسفة والمنطق، وظهور علم الكلام، حيث كان لهذه الظروف أثرها في توجيه الاجتهاد النحوي.

والتبويب ضرورة لا يستغنى عنها الدرس النحوي في شكله العلمي أو التعليمي، فهو الطريقة المثلى لجمع شتات المادة اللغوية، وتصنيفها في مسائل جامعة، وذلك يسهل مهمة تناولها والتعامل معها سواء من طرف الباحث أو المتعلم، من خلال بساطة عرضها ومنطقية تسلسلها ووضوح نتائجها ومرايها. كما أنه ينفي عنها التنافر والتشتت وبالتالي تقليل الوقت والجهد المبذول من قبل الباحث والمتعلم، حيث يصبح النحو مجموعة متجانسة من القواعد تنحوا بالمتعلم نحو الصواب في أدائه اللغوي، لذلك كان التبويب الممنهج لقضايا النحو ومسائله خط الدفاع الأقوى عن النحو على امتداد قرون طويلة.

وفيما يخص العلاقة استغلال التبويب النحوي في مسألة تيسير تعليم النحو فإننا نقدّم مجموعة من المقترحات المنهجية التي نعتقد فاعليتها في هذا الخصوص:

1. استعمال التبويب القائم على الوظيفة الدلالية: الانتقال من التبويب الإعرابي الجامد (مرفوعات، منصوبات) إلى التبويب الوظيفي الذي يربط القاعدة بالمعنى (مثل: باب التعبير عن الفاعل، باب التعبير عن الزمان والمكان)، مما يربط النحو بالواقع الاتصالي للطالب.
2. اعتماد التدرج المنطقي من الكلية إلى الجزئية : البدء بتقديم "الهيكل الكبرى" للجملة العربية قبل الدخول في التفاصيل الإعرابية الدقيقة، لضمان استيعاب الطالب للصورة الكاملة للتركيب قبل جزئياته.
3. دمج المقاربة النصية في التبويب : عدم حصر المسائل النحوية في جمل معزولة، بل تبويبها ضمن سياقات نصية (قرآنية، أدبية، حديثة) تُبرز حيوية القاعدة النحوية وأثرها في فهم المعنى.

4. تفعيل "التبويب التقابلي": وضع المسائل المتشابهة أو المتداخلة في أبواب متقابلة (مثل: الحال والتمييز، أو النعت والبدل) لإبراز الفروق الدقيقة بينها، مما يمنع التداخل الذهني لدى المتعلم.
5. توظيف الوسائط الرقمية في عرض الأبواب: تحويل التبويب الورقي التقليدي إلى "خرائط ذهنية وتفاعلية" تُظهر العلاقات المنطقية والتشجيرية بين القواعد، مما يسهل استدعاء المعلومة وتكوين الملكة اللغوية.
6. تجديد المصطلحات التعليمية: تبسيط بعض المصطلحات النحوية المعقدة أو توحيدها في التبويب التعليمي بما يتناسب مع الملكة اللغوية المعاصرة، دون الإخلال بالأصل العلمي.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم، ع. م. (1987). النحو التعليمي في التراث العربي. الاسكندرية: منشأة المعارف.
- ابن خلدون، ع. أ. (1984). تاريخ ابن خلدون. بيروت: دار القلم.
- الخميس، أ. ح. (2002). التفكير العلمي في النحو العربي. عمان: دار الشروق.
- الخميس، أ. ح. (2007). رؤى لسانية في نظرية النحو العربي. عمان: دار الشروق.
- الراجحي، ع. (1995). علم اللغة التطبيقي وتعليم اللغة العربية. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- الرحمن، ح. أ. (2008). بحوث ودراسات في علوم اللسان. الجزائر: دار موفوم للنشر.
- المكارم، ع. أ. (2007). أصول التفكير النحوي. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.
- المكارم، ع. أ. (1993). تعليم النحو العربي عرض وتحليل. دار الثقافة العربية.
- النجدي، ن. ع. (1979). سبويه إمام النحاة. القاهرة: عالم الكتب.
- بك، أ. س. (1988). في نقد النحو العربي. دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- بلقاسم، د. (66). النحو العربي بين التقليد والمناهج اللسانية الحديثة. مجلة الأثر.
- حاج الصالح، ع. أ. (2009). القياس على الأكثر عند نحاة العربية وما يترتب عليه. مجلة المجمع الجزائري للغة العربية. 11-12، حسان، ت. (2000). الأصول. القاهرة: عالم الكتب.
- حسين، ع. أ. (1998). أثر النحاة في البحث البلاغي. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- حسيني، أ. م. (1998). الكليات. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- سبويه، &، تح البكاء، م. ك. (2018). الكتاب. دمشق: دار الرسالة العالمية.
- ضيف، و. ش. تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده. القاهرة: دار المعارف.
- عوض، م. أ. (1981). المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثالث عشر. الرياض: شركة الطباعة العربية السعودية.
- كاظم، أ. م. (1989). منهج سبويه في التقويم النحوي. الكويت: دار العروبة.